تراث الإنسانية

NYROUF

الأحمر والأسود

لستاندال

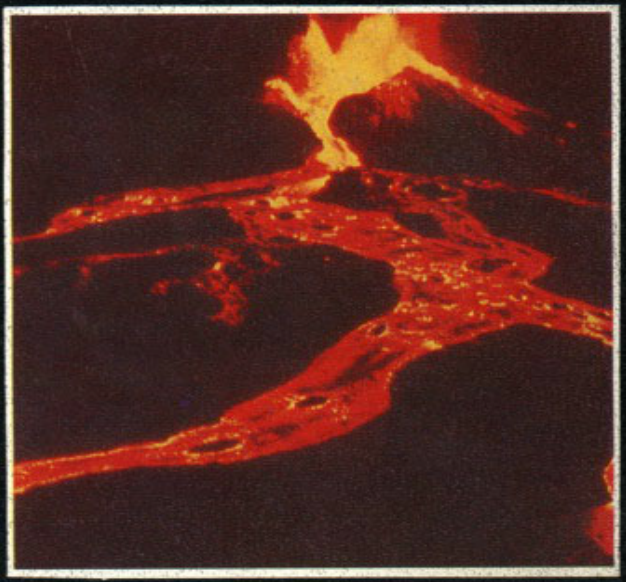

الهيئة المصرية العامة للكتاب

عبدالحميد الدواخلى

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

الانجاز الطباعى والفنى	وزارة الإعلام
محمود الهندى	وزارة التعليم
مراد نسيم	وزارة الحكم المحلى
احمد صليحة	المجلس الأعلى للشباب والرياضة

المشرف العام

د . سمير سرحان

الأحمر والأسود

لستاندال

عبدالحميد الدواخلي

نشأته (١) :

ستندال اسم مستعار من بلدة ألمانية صغيرة ، تسمى به الكاتب الفرنسي الكبير هنري بيل Henri Beyle الذي أثار أدبه ضجة شديدة في القرن التاسع عشر ، لأنه أديب وهب قدرة كبيرة على ملاحظة ما كان يدور في عصره من أحداث شاهدها عن قرب فكشف لنا أسرارها في دقة شديدة لم تتح لغيره من أدباء القرن الماضي . كنا عرف كيف يراقب الناس ويتغلغل ببراعة في خبايا نفوسهم ويطلع على أسرار قلوبهم فيصف لنا في صراحة ودقة عواطفهم وميولهم وغرائزهم وصراعهم النفسي في المواقف المختلفة التي تواجههم في حياتهم اليومية . فجاء أدبه مخالفا لما تعارف عليه الناس في الدين والسياسة والأدب والفن ..

---

(١) ستندال ٢٣ من يناير ١٧٨٣ ـ ٢٣ من مارس ١٨٤٢ .

ولد هنرى بيل بمدينة جرينوبل ، قبيل الثـورة الفرنسية وعاش فى عصر حـروب واضطرابات دائمـة وثورات اجتماعية كبيرة لم تشغل فرنسا وحدها زمنـا طويلا ، وانما امتـد هذا الصراع العنيف الى كثير من البلاد الأوربية .

كان ينتمى الى أسرة متوسـطة (برجوازية) أتيح لها قسط وافر من الثراء . غير أنه قد فطر منذ طفولتـه على كراهية كل من فى بيت أبيـه ، ولم يستثن منهـم سوى أمه . شب فوجد أباه « شيروبان بيل » محاميـا بخيلا ، قبيح الوجه ، وخالته « سـيرافى جانيون » قد بلغت من الكبر عتيا دون أن تتزوج ، فعمدت الى الافراط فى العبادة فضاقت بها نفسه . وكانت أخته « زنائيد » كثيرة اللغو فى حديثها . لا تكاد تتحدث اليه حتى يعرض عنها . ولم تتكشف له فضائل أخته « بولين » الا بعد سنوات طويلة من حياته .

أما أمه « هنريت جانيون » فكانت ملاذه فى ذلك البيت سنوات طفولته . يصفها بأنهـا كانت جميلة بسيطة ، حاذقة عذبة الحديث ، ترجع الى أصل ايطالى ، ماتت فى ريعان شبابها قبل أن تبلغ الثلاثين من عمرها . فكانت فجيعته اليمة لأنه كان يعبدها عبادة العاشق لهـا على حد تعبيره . ومن المحتمـل أن يكون هنرى بيل قد وجد فى جـده الطبيب « هنرى جانيون » بعض صفات

أمه ، فكان يتردد عليه كثيرا ويفيد من آرائه وعاداته وظروف حياته ، كما تعلم كثيرا من مكتبته ، فاستطاع بذلك كله أن يتعرف على القرن الثامن عشر ويطلع على أحداثه ، وعلى الظروف التى مهدت للثورة الفرنسية سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية .

وأما خاله « رومان جانيون » فكان له أثر سيء عليه ، وهو لا يزال يافعا : كان رومان يعد « دون جوان » المقاطعة كلها ، عرف بين مواطنيه بسلوكه الشائن ومبادئه التى تدعو الى التهتك الشديد والاستهتار التام بالقيم الخلقية وبالتقاليد البرجوازية المرعية فى عصره .

تعلم هنرى بيل فى مدارس جرينوبل وتخرج فى مدرسة السنترال بها بعد أن درس الرياضة والرسم . وكانت أسرته ترجو أن يصبح مهندسا ماهرا ، فأوفده أبوه الى باريس عام ١٧٩٩ ليتم دراسته بها ، ورتب له نفقة شهرية قدرها خمسون ومائة فرنك ، فأقام بغرفة صغيرة على مقربة من الأنفاليد » وحققت له اقامته بباريس ذلك الأمل الكبير الذى كان يستولى على نفسه ومشاعره ، كما خرجته من نير أسرته التى شب فوجد نفسه يخالف آراءها واعتقاداتها وميولها : كانت أسرته ملكية النزعة وكان هو جرا ثائرا على نظام الحكم الملكى غمره الفرح حين أعدم لويس السادس عشر ، وهو لايزال فى العاشرة من عمره ! ثم كانت أسرته كاثوليكية وكان هو يكره

المذهب الكاثوليكي . كما أتاحت له اقامتـــه بباريس التخلص من البيئة التي عاش فيهـــا : كان يضيق ذرعا بتفاهة أهل الريف ، ويقول صراحة ان جرينوبل تؤذيه أكبر الايذاء وتؤلمه أشد الألم ، وان أعجب على الرغم من هذا كله ببعض خصال مواطنيه كالخشية من الخديعة ، وعادة التأمل الباطني ، وهي صفات تمســـك بهـــا طول حياته .

حياته في باريس :

لم يكد يصل الى باريس ، وهو لايزال في السادسة عشرة من عمره ، حتى أسكره جو هذه المدينة الصاخبة وظن أنه أصبح حرا لا رقيب عليه ، فأعرض عن الدراسة ولم يأبه بالمسابقات العلمية التي كان عليه أن يتقدم لها . وتعرف « بمارسيال داري » واتخذه أستاذا له في الأبهة والزينة وحب الشهوات ، فتعلم منه ألوانا شتى من الحياة العابثة التي كان خاله رومان جانيون قد بذرها في نفسه وهو لايزال صغيرا في جرينوبل .

يحدثنا عنه « بيل » في مذكراته فيقول : « انى مدين له بالقدر الضئيل الذي أعرفه في فن معاملة النساء ! » غير أن السأم سرعان ما أمرضـــه ، فاعتنت صحته وعني به في محنته أحد أقاربه ومواطنيه « نوويل داري » والد أستاذ الأبهة والزينة ، وســـهرت عليـــه في مرضـــه « مدام داري » ترعاه في عطف وحب وحنان .

كان أبناء « داري » يبلغون أحد عشر ولدا ، منهم « بيير » الذى كان خيرا من أخيه : لأنه يتصف بالحزم الشديد فى غير قسوة ، وحب العمل ، اذ كان يشغل وظيفة ادارية لها خطرها فقد كان المشرف الحقيقى على تموين جيوش نابليون . وقد قرر بيير داري أن يبسط حمايته على « هنرى بيل » بعد أن وجده قد فشل فى حياته الدراسية ، فأسند اليه وظيفة أمين مساعد ، ثم استدعاه الى ايطاليا . ومنذ ذلك الوقت أصبح هو الموجه الحقيقى لهذا الشاب بالقدر الذى ينقاد به هنرى بيل الى سواه من الناس فى الحياة الجادة العاملة . وفى ٧ من مايو سنة ١٨٠٠ ، غادر هنرى بيل باريس ليذهب الى ايطاليا ، تلك الأرض الموعودة التى أحبها طوال حياته حبا جما ، وأصبح جنديا فى جيش نابليون فى حصن « بارد » بجبال الألب . غير أنه ظل سادرا فى غيه وحبه وليهوه يطارد غادته الفاتنة « أنجيلا بيتراجروا » فامتدت اليه يد بيير داري فى حزم لتنتزعه من حياة الفراغ ، وليصبح ملازما فى فرقة الخيالة .

وبالرغم من أن بيل كان قد سمع مدافع « مارنجو » وحارب « فى كاسل فرنكو » واشترك فى معركة مانتو ، الا أنه سرعان ما زهد فى الجيش ، فاستقال من منصبه وعاد الى باريس عن طريق جرينوبل .

ونحن الآن فى عام ١٨٠٢ ، وها هوذا بيل يعيش

في باريس متعطلا ، لا يجد عملا يدر عليه مالا ، فعمد الى هوايته الأدبية التي ملكت عليه نفسه عله يجد في التأليف المسرحي مصـــــدرا للرزق ، أخذ في تلك الفترة يكتب مسرحيات لا يعرف كيف يبدؤها ، وقصصا هزلية لا يدري كيف يختتمها ! وصار يتردد على المسرح ، لا يكاد ينقطع عنه بفضل تشجيع صديقه وأستاذه في الزينة والشهوات مارسيال دازي . وكان بيل كبير الفطنة ، يتمتع بشباب زاخر بالقوة والحيوية والجمال ، فاصبح محبوبا في هذا الوسط كما كان محبوبا في ايطاليا في السنوات الماضية وكثيرا ما كان يشبه بالأسد لطول قامته وغزارة شعره المجعد ونظراته النارية وفتوته ، كما كان حريصا أشد الحرص على التأنق الشديد في ملبسه .

لم يسعفه المسرح بالمال ولكنه أمده بحياة عاطفيـــة قوية تنطوي على اللذة والمغامرة والحب والعبث . أنساه المسرح مؤقتا غادته الايطالية « انجيلا بيتراجروا » ليولع بحب فتاة أخرى كانت تتعلم تمثيل المآسي ، تسمت في المسرح باســـم « لوازون » واســـمها الحقيقي « ميلاني جلبير » . استخدمت معه سلاحا ماضيا : سخرت من هذا الفاتن الجميل ، فزاد تعلقه بها حتى استطاعت أن تقياده معها الى مرسيليا ، حيث وجدت فيها عملا يكفل لهـا الرزق . توقف في جرينوبل وهو في طريقه الى مرسيليا ليطلب من والده مالا الا أنه آب بالفشل حين رفض أبوه

أن يمده بالمال . عزم على الانتحار ، ولكن كل ما فعله هو أن سأل عن السم ثم لحق بحبيبته في مرسيليا . واضطر بيل بدوره الى أن يبحث عن عمل يسد نفقاته الكثيرة . لأن المرتب الشهري الذي كان يرسله له أبوه وقدره مائتا فرنك زيدت الى ثلاثمائة فرنك ، كان ينفق من غير حساب ، فاشتغل بالتجارة ، ويا له من عمـــل يأباه طبعه فكانت تجارته بخسرة ! وبالرغم من قلبه المولع بحب « ميلانى » ، فقد ضاق ذرعا بها وبمرسيليا بعد عامين ، كما زهد من قبل في صديقاته وفي بلده جرينوبل . لقـد ترك اذن تجارته وخليلته ليعود الى باريس ، سعيدا بالعودة لها .

مع نابليون في حروبه

أصبح هنري بيل منذ سنة ١٨٠٦ مرتبطا ارتباطا شديدا بحروب نابليون ، فقد حصـــل له من جديد صديقه « بيير داري » ، على وظيفة بالمكاتب الحربية . قضى تلك الفترة في ألمانيا فعاش عامين في بروزفيك ، واخذ يدرس ألمانيـــا وأخلاق الألمان وعاداتهم ، بينما كانت « مدام دي ستايل » تستعد لتقديم دراستها عن ألمانيـــا الى مواطنيها الفرنسيين . اكتشف ستندال طيبة الألمان ونقاء سرائرهم ، وأحب في الألمانيـات جمال وجوههن ، على عـادته في ولعه بجمـال المرأة . أنى كانت . غير أنه لم ينتبه الى قوة الفردية في الألمان حين وصفهم بالرخاوة .

وفي مارس سنة ١٨٠٩ ، أقام مدة قصيرة بباريس ثم غادرها الى استراسبورج ومر بأنجو لشتادت ولندشوت ووجرام ، ثم أقام بفينا زمنا قليلا بالرغم من حبه لها ، لانه أراد الذهاب الى اسبانيا فطلب أن يسند اليه منصب بها ولكنه لم يجب الى طلبه . وعاد من جديد الى باريس حيث عين في أغسطس سنة ١٨١٠ في وظيفة بمجلس الدولة . وعلى هذا أصبح هنري بيل شخصية لها قيمتها وخطرها ، فقد تقلد بعد ذلك مناصب كبيرة درت عليه أموالا كثيرة . وأخذ يحيا تلك الحياة السهلة التي تتفق وميوله . وكثيرا ما كان يغادر باريس ليقضي أياما في ضواحيها ، وقد تمتد به رحلاته فيصل الى شاطىء البحر وهو يعرف كيف يحب البحر ، فقد قال في كتابه « مذكرات سائح » : « ان الاقامة على شاطىء البحر تقضي على الصفائر ، والحديث الى بحار يعود من رحلة هو عندي أكثر فطنة من الحديث الى كاتب عقود مدينة بورج ! » .

ثم كلف وقتذاك بمهمة رسمية في روسيا ، فصحب جيش نابليون الى « ولنا » ودخل معه سمولنسك وموسكو ، ثم رافقه في تقهقره ، وذهب الى بريزينا وعبر كونجسبرج ودانتزج وبرونسويك وكاسل وفرانكفورت وماينس .

بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، عاد الى باريس في ٣١ من يناير سنة ١٨١٣ ، وظل يترقب منصبا جديدا ، طامعا في أن يعين حاكما لاحدى الولايات ، غير أنه

لم ينل ما كان يصبو اليه . فعاد الى ألمانيا واشترك فى حملة ساكس إشتراكا فعليا ، فى تلك المعركة المفاجئة معركة « نيبدز ماركرسدورف » . ولقى الامبراطور بونابرت بعد ذلك بأيام فى « جور ليتز » ليتحدث اليه فى شأن تلك المعركة . ثم أصبح رئيسا لقسم « لاتور موبور » فاستولى عليه السام وأصيب بحمى عصبية ، سافر على أثرها الى ايطاليا يطلب فيها الشفاء والراحة فى ميلانو واللهو مع صديقته « بيتراجروا » .

وقد امتدت اقامته بها كل أيام خريف سنة ١٨١٣ الى أن اضطره غزو فرنسا الى العودة الى وطنه ، فعين فى الفرقة السابعة لينظم حركة المقاومة فى مقاطعة «دوفينى» حيث أظهر نشاطا كبيرا ودل على وطنية شديدة لم يكن يتوقعها أحد من هذا الرجل الذى عاش فى البلاد الأجنبية أكثر مما عاش فى فرنسا ! الا أن الحمى عاودته وحز فى نفسه ما كان يلقاه من حقد أهل « جرينوبل » عليه ، فقد أغضبهم منه توقيعه « دى بيل » على النداءات والاعلانات العسكرية ، التى كان يصدرها لسكان المقاطعة ، وهو لا ينتمى الى طبقة الأشراف بأى سبب ! عين آخر محله فى عمله وارتحل هو الى باريس ، حيث وافق على قرارات مجلس الشيوخ بخلع نابليون ، منضما فى ذلك الى البربون يحدوه أمل كبير فى أن يعين فى قنصلية نابولى ، ولكنه كان أملا ضائعا !

وازاء تلك الخيبة ، عاد الى ميلانو والى صديقته الميلانية . وقد احتجزته ايطاليا هذه المرة مدة طويلة ، فقد بقي بها من سنة ١٨١٤ ـ ١٨٢١ . وكان غاضبا أشد الغضب على البربون ، قاسيا عليهم قسوة شديدة بقدر ما كان يعتمل في نفسه من حنق لمخالفته عقيدته السياسية حين ساير البربون في الخروج على نابليون ، ولم ينل ما كان يتوقعه من جزاء مادي يتيح له أن يحيا الحياة التي ترتضيها نفسه !

حياته في ايطاليا

ظل ستندال مقيما بميلانو ، تلك المدينة المحببة الى نفسه ، القريبة الى قلبه يتردد كعادته على مسرح « اسكالا » ترددا غير منقطع ، ويلقى فيها أصدقاءه ، « مونسنيور دي برم » الذي كان يسر بأحاديثه والشاعر «ونتي الذي كان يعده أكبر شاعر على قيد الحياة في عصره ، ثم اتصل « بسلفيو بليكو » الذي دفع غاليا ثمن انتمائه لحركة الكربوناري ..

أحب ستندال ايطاليا لما كانت تتصف به من حيوية ونشاط ، فهي على حد تعبيره : « بلد السرور واللذة والفن والفراغ ، لقد اختفت تنزح عنها نير الاستبداد وتوطد في ارضها حقوق الخيال والهوى » . ومع أن ستندال كان

سائحا لا يميل التنقل من بلد الى بلد ، فكم تحدث عن حبه لأى بلد حل به ، ولكن ايطاليا وجدها هى التى سيطرت على نفسه وعواطفه ، فاذا ما بعد عنها نسب اليها كل ما هو جميل رائع : مر ستندال فى احدى رحلاته الكثيرة ببلدة لاندشوت فكتب يقول : « كان لهذه البلدة نفس الأثر الذى تحدثه ايطاليا ، فقد رأيت فى نصف ساعة خمسة وجوه نسائية ، بيضاوية الشكل ، رائعة الجمال ، لا تمت الى المانيا بأية صلة ! » .

ونقرأ فى كتابه : « روما ، نابولى وفلورنسا » العبارة التالية : « انى حين أجلس الى الميلانيين وأتكلم لغتهم . أنسى أن الرجال قد فطروا على الشر وتتبدد من نفسى فى الحال كل امارات السوء » . انها لعبارة واضحة دقيقة ، ولكنها لا تنطوى على الكثير من الصدق ! فهى نزعة من نزعات ستندال ، مثلها مثل تلك الرغبة التى أبداها عام ١٨٢٠ فى أن يدفن فى ميلانو وتكتب على قبره تلك الكلمات : Arrigo Beyle Milanese (قبر بيل الميلانى) .

عودة الى باريس

ثم اضطر ستندال الى مغادرة ايطاليا عام ١٨٢١ لأن النمساويين أخذوا يعتقدون أنه من أنصار حركة الكربوناري ، واتهمه الايطاليون بأنه مناصر للألمان !

كان ستندال يؤمن بأن فن الحب لا يوجد الا فى ايطاليا ، أما فن الحديث فهو فن باريسى خالص ! ولذلك كان يحب لقاء الأصدقاء الأذكياء ويتحدث اليهم : كان يلقى فى باريس نخبة كبيرة من الأدباء ورجال السياسة والصحفيين منهم « بروسبير ميريمى » وسانت بيف وأمبير وروماى كولومب الذى كان شديد الاخلاص لستندال محبا له ، لا يضن عليه بشىء حتى بالمال ! كما كان كثير التردد على الصالونات الأدبية والسياسية لدى مدام باسطا ومدام أوبرتون ومدام أنسيلو . على أن خير وقت كان يقضيه فى باريس هو ذلك الوقت الذى كان يلقى فيه دليكليز ناقد مجلة « ديبا » بعد ظهر أيام الأحد من كل أسبوع ، حيث كان يلتقى بكبار الصحفيين الباريسيين أمثال : ديبوا وكوريبه وستبفير . وقد عرف فى هذه الأوساط بالذكاء والفطنة والدعابة .

كان حينما يمل هذه الحياة الباريسية ، يعبر المانش ليستمع الى المغنى « كين » ويعجب بالريف الانجليزى ، أو يحاول الذهاب الى ايطاليا ليقيم فى ميلانو العزيزة عليه ، المحببة الى نفسه ، وان ظل رجال الشرطة من النمساويين له دائما بالمرصاد ، فقد أبعدوه عن ايطاليا فى أول يناير سنة ١٨٢٨ يوم وصوله اليها للمرة الخامسة .

وكانت رحلاته ولهوه وافراطه فى التأنق قد أتت على ما كان بين يديه من مال ، وكاد البربون يستغنون عن خدماته . ومعاشه وقتذاك لا يتجاوز خمسمائة وألفا من الفرنكات ، ولم يعد ستندال يأمل أن يعيش من قلمه ! اقترض المال حتى أثقلته الديون ، ولقى فى حياته عسرا شديدا بجانب ما كان يلقاه من آلام أخرى معنوية وبدنية. تراكمت عليه كل تلك الصعاب فعزم على قتل نفسه وكتب وصية فى ليلة ٦ من ديسمبر سنة ١٨٢٨ ، وكان قد كتب قبلها وصـــايا كثيرة ! غير أن تضرعات صديقه الوفى كولومب والمبلغ الذى حصل عليه من كتابه « نزهات فى روما » وقدره خمسمائة وألف من الفرنكات ، كل هذا قد جدد فى نفسه حب الحياة ، فاستدعته ايطاليا مرة أخرى . وكاد يذهب اليها فى مهمة رسمية بعد موت البابا « ليلان الثـــانى عشر » ليســـاعد على أن ينتخب الكردينـــال « جريجوريون » أحد أنصار البربون . وكان « شاتوبريان » فى ذلك الوقت سفيرا فى روما ، وكاد ستندال يعمـــل مساعدا لهذا الذى كان يطلق عليه فى سخرية شديدة : « امام البوذيين الكبير ! » .

وأخيرا ظل مقيما بباريس . على أن سنأمه لم يدم طويلا ، فتلك المهمة التى لم تتحقق جعلت منه سياسيا . وعين قنصلا لفرنسا فى تريستا فى شهر أغسطس سنة ١٨٣٠ ، فسارع الى تسلم منصـــبه الجديد ، دون أن

يحفل بقصته التي أعطاها للناشر وهي « الأحمر والأسود » غير أنه لم يكد يستقر في تريستا حتى رفض « مترنخ » الموافقة على اقامته بها ، لأنه كان قد سخر من النمسا في كتابه « روما ونابولي وفلورنسا » .

منصب سياسي في ايطاليا

ضاق مترنخ ذرعا بستندال فلم يوافق على تعيينه قنصلا بتريستا ، ولكن رحمة البابا وسعته ، فعين قنصلا « بسفيتا فيشيا » داخل مملكته . وفرضت عليه الاقامة في تلك المقبرة القديمة التي تنتشر فيها الملاريا ، فشتان بينها وبين المدن الايطالية الأخرى التي أحبها حبا جما مثل ميلانو ونابولي وفلورنسا وروما ! وكره سكرتيره في القنصلية « لزيماك تافرنييه » لأنه كان يتصف بالخسة في خلقه وعمله على السواء . ولهذا كان ستندال ينتهز كل فرصة ليغادر مقر عمله ويفر الى انكون أو روما أو باريس التي ذهب اليها أول مرة سنة ١٨٣٣ وظل مقيما بها أربعة شهور بعيدا عن وظيفته السياسية في المملكة البابوية .

ثم أتيحت له فرصة بعد ذلك ليجدد عطلته فبقي مقيما بالعاصمة الفرنسية أكثر من ثلاثة أعوام ، من مايو سنة ١٨٣٦ الى يونيو ١٨٣٩ .

عاد من باريس ليقيم بايطاليا أكثر من عامين آخرين من أغسطس سنة ١٨٣٩ الى نوفمبر سنة ١٨٤١ . ثم عاد من جديد الى باريس وقد تهدمت صحته وضعفت قواه تماما من آثار الروماتزم والملاريا ومن مضايقات « تافارنييه » ومكايده ، عاد اليها ليموت بها في ٢٢ من مارس سنة ١٨٤٢ اذ أصيب بهبوط مفاجيء في قلبه وهو يسير في أحد شوارعها ، ولكنه ظل على قيد الحياة حتى اليوم التالي ، وعني به صديقه الوفي كولومب . ولم يشيع جثمانه حتى مقبرة مونمارتر سوى ثلاثة أشخاص منهم كولومب وبروسبير ميريمي لأن ستندال لم يكن معروفا من الجمهور ، وكان الكثيرون من الأدباء يجهلونه أو يتجاهلونه، حتى أن بعض الصحفيين حرفوا اسمه وهم ينعونه في صحفهم ، وخلطوا بين اسمه الأدبي « Standhal » وبين اسمه الحقيقي هو : « فردريك ستندال » Frédéric Styndall من تأليف كرارتي Kérarty وهو خطأ شنيع ، الا أنه خطأ طبيعي : فقد كانت حياة ستندال حياة مضطربة ، حياة رجل كامل الرجولة ، حياة شائح يحب التنقل دائما ، لا حياة مؤلف طابعها الهدوء والاستقرار . وهذا هو السر في أن أدبه لم يكن معروفا تماما من معاصريه وأن كتبه على كثرتها لم تكن

ذائعة في عصره ، وأن ما رمى به من شذوذ لم يفهم على حقيقته الا بعد أن مضى أكثر من نصف قرن على وفاته ! وقد تنبأ هو بذلك قبل أن يغادر الحيـــاة الدنيا ، حين قال : « لن أعرف الا بعد مائة عام ! » .

مؤلفاته

أحب ستندال بيل الأدب حبا أملاه عليه ذوقه وفراغه ، كما فرضته عليه طبيعته وميوله . نشر أول كتـــاب له وهو : « حيـــاة هايدن وموزار وميتاســـتاز » (٢) سنة ١٨١٤ .

« Vies de Haydn, Mozart et Métastase »

وهو كتاب ليس له فضل كبير فيـــه ، لأنه كان مقتبســـا من كتب غيره من المؤلفين ، الا أنه مع ذلك

---

(٢) هايدن : فرانز جوزيف هايدن ، مؤلف موسيقي نمساوي (١٧٣٢ ـ ١٨٠٩) .

الف سيمفونيات رائعة بما قطر عليه من خيال غزير ، وعرف بمقطوعاته العذبة : « الخلق » و « الفصول » . ويرجع اليه الفضل في وضع قواعد السيمفونية الكلاسيكية في أسلوب طابعه الاتزان والظرف والدعابة . كما الف رباعيات وثلاثيات موسيقية كان لها اثرها في التطور الموسيقي .

موزار : ولف جانج أماديز موزار ، نابغة من نوابغ الموسيقى (١٧٥٦ ـ ١٧٩١)

جمع معلومات كثيرة عن حياتي « هايدن وموزار » خلال إقامته بفيينا .

وفي عام ١٨١٧ نشر كتابه : « تاريخ الرسم في ايطاليا » Histoire de la peinture en Italie وأهداه الى نابليون . ونظريته في الفن تعنى عناية شديدة بالمضمون أكثر من عنايته بالشكل ، انه يعنى بتكوين العمل الفني وتركيبه أكثر من عنايته بصقل هذا العمل . وعلى ذلك فهو يفضل جيوتو (٣) بالرغم من

= ولد بسالزبورج بالنمسا . خلال حياته القصيرة الخاطفة ألف روائع موسيقية منها : « زواج فيجارو » و « دون جوان » و « الناي الساحر » وغيرها . وله سيمفونيات ذات أثر كبير في عالم الموسيقا . كما ألف الكثير من الموسيقا الدينية والأنغام الهادئة والثلاثيات الموسيقية المعزفة . ويعتبر موزار استاذا من أساتذة النغم ، يعمد في موسيقاه الى الوضوح والبهجة ويصل الى القمة من خلال بساطة أسلوبه وظرفه .

جيتاستار : بيترو ميتاستاز ، شاعر ايطالي (١٦٩٨ ـ ١٧٨٢) ولد في أسيزا ، وألف مسرحيات موسيقية يمتاز أسلوبها بالسهولة والانسجام .

(٣) جيوتو دي دوندوني : رسام ايطالي (١٢٦٦ ـ ١٣٣٦) ولد بمدينة كول وينتمي الى مدرسة فلورنسية في الفن . أدخل في الرسم قوة التعبير والعواطف والحياة وانسجام التركيب والعمارة . وقد زين جدران كنيسة اسيزا ومعبد كنيسة « أريذا » في « بادو » .

هفواته على دافيد (٤) ومدرسته . ومدرسة دافيد في الرسم تقابل مدرسة بوالو في الشعر ، ترمي الى احترام الاستعمال واللياقة وعادات التمدن التي فرضتها على الفن — في رأي ستندال — « سياسة مزعومة تحاول القضاء على العواطف القوية » . وستندال في كل كتاباته يتطلب من عصره الفتي أن يعيد الى هذه العواطف حقوقها ، وهو لهذا يفضل شكسبير على راسين والنثر على الشعر والحرية على القواعد .

وفي نفس السنة ، عام ١٨١٧ ، اهتدى الى الاسم الأدبي الذي نشر به كتبه وهو « ستندال » ، وقد استعاره — كما ذكرنا من قبل — من اسم بلدة ألمانية صغيرة ، وكتبه لأول مرة على كتابه : « روما ونابولي وفلورنسا » : Rome, Naples et Florence ويعد هذا الكتاب مع كتاب آخر ألفه سنة ١٨٢٩ وأسماه « نزهات في روما » « Promenades dans Rome » بمثابة دليل أدبي يدل على معالم ايطاليا ويعرف بها تعريفا صادقا .

---

(٤) دافيد : لويس دافيد ، رسام فرنسي ولد في باريس (١٧٤٨ — ١٨٢٥) اختير زمن الثورة الفرنسية عضوا بمجلس الشعب ، وأصبح رسام نابليون زمن الامبراطورية . وكان زعيم المدرسة الكلاسيكية الحديثة في الفن فأصبح موجها للرسم الفرنسي منذ عام ١٧٨٥ حتى وفاته في المنفى . ومن اشهر لوحاته : مارا مقتولا ، و « التتويج » .

وهو تجديد أدخله ستندال فى الأدب الفرنسى وأطلق عليه منذ ذلك الوقت : أدب « الرحلات » أو « الأدب السياحى » . وهى كتابات تنطوى صفحاتها على الأحداث التاريخيـــة ووصف الأماكن والآثار الفنية وأسرار القلوب وحكايات مختلفة ، انه خليط عجيب ولكنه يعد طبيعيا وصادقا كل الصـــدق . ويحدد لنـــا ستندال معالم الدور الذى كان يقوم به فى ايطاليا ، دور الرحالة الذى أحب ايطاليا حبا جما فيخبرنا بأنه كان يجرى كل صباح خلف ذلك اللون من الجمال الذى كانت تجيش به نفسه حين يستيقظ من نومه ، وأنه كان يصور الأشياء التى تقع عليها عيناه وفقا للأثر الذى تولده فى قلبه . وبدلا من أن يصف فى كتاباته لوحات فنية وتماثيل رائعة ، كان يحلو له أن يصف لنا أخلاق الناس وعاداتهم . ومن أهم آراء ستندال وأصدقها أن الانسان لا يتسنى له أن يفهم ايطاليا الحديثـــة على حقيقتها ولا يدرك تماما كنه المرأة الايطالية الا اذا عرف تاريخ ايطاليا فى القرون الوسـطى وفى عصر النهضـــة حيث كانت ايطاليا أرض القوة والنشـــاط الجارف زمن سفورس وبورجيا وبنفينوتو سليتى .

وتعلق ستندال بايطاليا يبين لنا ـ كما رأينـــا من قبل ـ ذوقه المتغير دائما ومزاجه الذى لا يستقر اطلاقا .

وايطاليا التى كان يعجب بها وكتب عنهـــا كثيرا وتنبأ بأنها ستتبوأ مكانة فى مضاف الدول الأوربيـــة

الكبرى ، هي ايطاليا التي كان يعتقد أنه يراها ، لا التي كان يراها حقيقة !

★★★

لم يفقد الأدب شيئا خلال تلك الفترة التي أقامها ستندال بباريس ، ففي تلك السنوات التسع (١٨٢٢ – ١٨٣١) ألف كتابه « من الحب » De L'Amour سنة ١٨٢٢ وهو دراسة نفسية عميقة لا يقوى عليها الا ستندال الذي كان موكلا بالجمال يتبعه ، مشغوفا بالحب لأنه في رأيه عاطفة تمد النشاط بحيوية كبيرة وتشحذ الفكر وتقوى الخيال . لقد كان يؤمن ايمانا شديدا بهذا الجنون الذي يسخر منه العقلاء جميعا ، ويعده الحكمة بعينها ! والجمال الذي كان يجذب ستندال ليس الجمال الكلاسيكي ، فهو يرى الجمال اليوناني تافها ، وكان مولعا بالجمال « الذي لا نظير له في العالم ! » ذلك الجمال الذي يضفي على النظر أثرا جديدا . لقد قضى خير سنوات عمره يبحث عن هذا الأثر ، ويعدو وراءه عدوا شديدا . ولذلك أحب الايطاليات فاتخذ ايطاليا مثلا أعلى له ، وعاش فيها حياة عاصفة ، حياة غنية صاخبة تنطوي على اللهو والعبث والجد والعمل !

يدرس ستندال الحب فى بيئاته ومجتمعاته المختلفة ، ويذكر أن نزعات الحب تختلف من موطن الى آخر ونزواته تتغير من طبقة اجتماعية لطبقة أخرى . يتحدث عن الحب فى ايطاليا واسبانيا وانجلترا وأمريكا والمانيا والبلاد العربية نفسها ، حين يحدثنا عن الحب العذرى ويقص علينا قصة شهداء الحب من الشعراء والمحبين العرب . وهو بجانب هذا دراسة وافية للمجتمعات ونظم الحكم وأثر الحكومات المختلفة فى عادات الناس وطرق حياتهم وتفكيرهم .

التزم ستندال فى هذا الكتاب النقد اللاذع والصراحة الجريئة والخروج على القيم التى كان عصره يتمسك بها كل التمسك ، فلم يقبل عليه الا سبعة عشر قارئا خلال أحد عشر عاما من سنة ١٨٢٥ ـ ١٨٣٦ حتى وصفه ناشره بأنه « كتاب مقدس ، لا يمسه أحد ! » .

وفى تلك الفترة ألف ستندال أيضا سنة ١٨٢٤ كتاب « راسين وشكسبير » Racine et Shakespeare . وفيه يفضل شكسبير على راسين ويتخذه أستاذا له . ثم كتب « حياة روسينى » La vie de Rossini والف أولى قصصه : « أرمانس » Armance سنة ١٨٢٧ . ثم جذبه من جديد حبه لايطاليا فكتب : « نزهات فى روما » Promenades dans Rome سنة ١٨٢٩ . كما ظهرت طبعة جديدة لكتابه « روما

ونابولي وفلورنسا » زاد فيها كثيرا ، وضمنها آراءه في الفن والأحداث الأدبية وأخلاق النـــاس وعادات المجتمع ومشاهداته في ايطاليا وذكرياته الكثيرة المثيرة .

وتابع ستندال الكتابة في باريس وسفيتا فيشيا وروما خلال تلك الفترة التي تبدأ ســـنة ١٨٣٠ وتنتهي بوفاته سنة ١٨٤٢ ، فقد ألف خير قصصـــه « الأحمـــر والأسود » سنة ١٨٣١ ، وظهرت له كتب كان قد بدأها في مقر منصبه السياسي ، وهي : « الصـــياد الأخضر » و « الحوادث الايطالية » و « مذكرات سائح » وطبعت كلها عام ١٨٣٨ ، ثم ظهرت قصته « ديربارم » في السنة التالية ، وهي قصة كتبها ستندال لجمـاعة قليلة من المرفهين ذوقيا بطريقة مترفة وأسلوب رفيـــع . ليست قصة حب فحسب وانما هي قصة سياسية هامة تعكس المثل العليا الداخلية لأشخاصها وأبطالها الذين يتصفون بالجمال والحظ الباهر والسعادة والشباب ، وتتفتح فيهم نزعات البطولة والتحمس والشجاعة والاقدام .

هذه هي الكتب التي نشرت في حيـــاته ، على أن هناك كتبا أخرى لم تنشر الا بعد وفاته بزمن طويل هي : « لوسيان لوفان » و « لاميل » و « مذكرات » و « حيـاة هنري برولار » التي تشبه كثيرا حياة ستندال في طفولته ثم « ذكريات عن الذاتية » .

ذاتية ستندال واتجاهاته الأدبية

كان ستندال يتصف « بالذاتية » ، وهي صفة تظهر بوضوح وجلاء في بعض عباراته ، فقد كتب يقول : « هل أتغير ؟ انها لمغالطة كبيرة ! انى أستسلم تماما لنقائصي . ويجب على الانسان أن يعرف نفسه معرفة دقيقة . وطريقة الوصول الى ذلك هو أن يخضع نفسه لتحليل خالص نزيه . وحينما يتم له هذا التحليل ينبغي له أن يتقبل كل نتائجه بما تنطوى عليه من خير أو شر على السواء . على ألا يكتفي بتقبل هذه النتائج ، بل يجب عليه أن يولع بها في لذة وقوة ! وأن تكون القاعدة الوحيدة التي يطبقها هو أن يكون مخلصا مع نفسه ، ويظهر هذا الاخلاص في عباراته وتصرفاته . وعليه ألا يأبه بما يقع من مفارقات أو يخالف التقاليد ، ولا يرى صلاحا أو استقامة خارج هذا النطاق . وأن نشك فيما قد نناله من نصر على نفوسنا باسم العقل أو السيطرة أو الأخلاق ! » .

هذا هو المبدأ الأساسي لأخلاق ستندال وتفكيره وسلوكه في الحياة ، وهو مبدأ قوى أطلق عليه النقاد لفظ « بيليزم » نسبة لهنري بيل .

ويتصل بهذا المبدأ من قرب ما سماه ستندال « قوة النفس » . ولكن ماذا يقصد ستندال بهذه الكلمة ؟ إنه

لا يريد اطلاقا تلك الارادة التي نستعملها لتكوين الشخصية أو الوصول الى درجة ما في نظام المجتمع ، أو لتكون متدينين معتدلين عادلين ! ان الرجل القوي في عرف ستندال هو الذي لا يعترف كيف يحد من قوة عواطفه أو اضطراب غرائزه ، ويكره كراهية شديدة أن يكون قدوة للناس . فالرجل القوي هو الذي لا يحب قسوة الأوامر ولا يخفل بالحذر في كلامه ! ولهذا كان ستندال يحب الجرأة والشجاعة التي تستهويه في جميع صورها ، ويولع ولعا شديدا بنزعة البطولة والتحمس : فقبريس دلدنجو بطل ديربارم ، بطل شاب ، ذهب صبيا ليلقى نابليون ويشترك في معركة واترلو ! وجوليان سورل بطل « الأحمر والأسود » صورة صادقة لبونابرت في جرأته واقدامه ، اتخذه طول حياته مثله الأعلى ، وتسلطت عليه فكرة كان يرددها دائما وهي أن نابليون ، الضابط الفقير المغمور ، قد استطاع بحد سيفه أن يصبح سيد العالم ، فلم لا يصبح هو بدوره ، وهو ذلك البائس ابن النجار الفقير ، سيدا مسموع الكلمة ، مرهوب الجانب ؟

ان قوة النفس التي تتردد في كلام ستندال لا ترمي الى شيء آخر سوى الأخلاق ، وهي عنده التلقائية ، تلك النزعة الطبيعية التي اكتسبها من اقامته الطويلة في ايطاليا ، وهي ايضا الاستقلال . والنشاط هو الفضيلة

التي تخلع على الشخصية قوة كاملة ، فهو الذي يثيرها تارة ، ويدفعها الى الحمق تارة اخرى ! وكم كان يحلو لستندال أن يعيث عبثا واضحا في الصالونات التي تتصف بالوقار ! وكم كان يبدو فظا غليظ القلب في تلك الصالونات ، ويسره ، وهو في ضيافة البارونة « جيرار » — أن يبدي آراء غريبة تتسم بالقحة ليشتت شمل سيدات أسر « جي وسوفي ودلفين الأم وكريمتها » ! وحين يتحدث ستندال عن رذيلة أو معصية أو جريمة ! لا يحكم اطلاقا بأنها رذيلة أو معصية أو جريمة ! يقص علينا في دير بارم قصة قتال نشب بين فبريس دلدنجو وبين مهرج يدعى جيلتي بسبب فتاة ، وقد أفضى القتال الى موت جيلتي . ومع ذلك فلم تحل تلك الجزيمة دون أن يعين فبريس رئيسا لأساقفة بارم ! انه يتحدث في صراحة عن المكر والخداع والدسائس والعلاقات الجنسية التي تنطوي على خيانة النساء لأزواجهن والرجال لنسائهم ، يتحدث عن وعد الدوقة سنسفرينا لأمير بارم بأن تمكنه من نفسها او أمر باطلاق سراح فبريس من السجن ليتجو من السم الذي سيدس له في الطعام !

لهذا كله أحب ستندال نابليون حبا شديدا بعد عام ١٨١٥ ، وكان محاميا له قبل الأوان لأن الكاتب كان يرى في بونابرت خير أساتذة النشاط والجرأة والاقدام . وقد خلق له تلاميذ ستظل ذكراهم عالقة بالأذهان ، يتصفون بالمشاعر القوية والكبرياء الشديد والتسلط على

الرجال والتلقائية المتطرفة والفضائل العامة . وكان يحلو لستندال دائما أن يقارن هذه الصفات بما فطر عليه أمراء عصره وشباب الطبقة الثرية من تفاهة وسماجة ونفاق وتملق وضعف خلقي ، في عهد اعادة الملكيـــة وفي عهد الملكية في ثورة شهر يوليو سنة ١٨٣٠ . ثم يذكـــر في اعجـاب شديد الحماسة الكبيرة والحزم الشـديد اللذين كان عليهما الجمهوريون سـنة ١٧٩٢ ، وجلبـة خيـل الامبراطورية التي كانت تجلجل في جميع أنحاء أوربا !

طبق ستندال هذه المبادىء على الأدب ، فطالب عصره بأن يعيد الى العواطف القوية حقوقها ليتحدث الناس في جرأة وشجاعة وليتصفوا بالتلقائية والنشاط والحيوية . ولهذا فضل النثر على الشعر والحرية على القواعد ، وتحمس للمذهب الرومانتيكي تحمسا قويا ، الا فيما يتعلق باقتصار أنصار هذا المذهب على تصوير الحاضر والحوادث التي تجرى في عصرهم . وهو لهذا يعد رومانتيكيا للعصر القديم ، وان كان القرن التاسع عشر يعده كلاسيكيا . أحب جان جاك روسو وفولتير وفضل شكسبير على راسين وأعجب بأبطال كورنى ، كما أحب من الموسيقيين سيراموزا وروسيني وفضلهما على وبر وبيتهوفن .

تعلم ستندال اليسير من أساتذته والكثير من قراءاته ورحلاته . وجد غذاءه العقلي وطريقته في التفكير فيما كتبه

الفيلسوف الفرنسي « دستوت دي تراسي » (٥) أحد أنصار مدرسة كوندياك . وهي طريقة ترمي الى دراسة الآراء من حيث هي ، وكان لا يبغي من وراء هذه الطريقة مجرد الحصول على معلومات عن القلب البشري ، ولكنه كان يرمي الى أن يتاح له التسلط على الرجال حين يعرف أسرارهم الدفينة ونزعات قلوبهم . كان موهوبا في قوة ملاحظته ، فعرف كيف يراقب الناس ويتغلغل في خبايا القلوب والنفوس ويتقصى في دقة شديدة البواعث الخفية التي تصدر عنها أعمالهم ، ويتوصل الى معرفة الفروق الدقيقة في ثقة كبيرة ويضفي هذا كله على أشخاص قصصه . وصفه « Taine » الناقد الفيلسوف الفرنسي بقوله : « لم يعلمنا أحد خيرا من ستندال كيف نفتح عيوننا لنرى ونلاحظ ما يدور حولنا ! » .

لقد عرف ستندال نفسه معرفة عميقة فتوصل الى معرفة النفوس البشرية ، وجاءت كتاباته مملوءة بالدراسات النفسية ، بالحياة الداخلية لأبطاله وأشخاص قصصه : بسرورهم ومخاوفهم وحذرهم ومكرهم وبكل صراع يعتمل

---

(٥) أنطوان لوي كلود دستوت دي تراسي : فيلسوف فرنسي ينتمي الى مدرسة كوندياك ، ولد بباريس (١٧٥٤ ـ ١٨٣٦) ويعد زعيم الأيديولوجيين ، وهم أولئك الذين يقبلون الآراء على علاتها لا يخلطون بينها وبين أي لون من ألوان الميتافيزيقا . كان معاصرا لستندال ، واختير عضوا بالاكاديمية الفرنسية .

في نفوسهم . ولذلك نراه يعرض علينا نماذج مختلفة ، فأبطال للحب مثل فبريس دلدنجو وكيليا كونتى وجوليان سورل ومدام دي رينال وماتيلد دى لامول وأبطال للمكر والخداع والدسائس ، مثل رافرسى وراسى والأب سورل . حب وسعادة وشباب وجمال وكراهية وبؤس وقبح وخداع ، نزعات مختلفة تمثل الناس فى كل مجتمع صاخب وتصدق على كل عصر من العصور !

مكانته الأدبية

كرمت الحكومة الفرنسية ستندال ، فمنحه وزير المعارف عام ١٨٣٥ وساما تقديرا لأدبه ، غير أن الأدباء والنقاد الفرنسيين قد اختلفوا اختلافا شديدا فى الحكم عليه : ففيكتور هيجو يحتقره ، والفريد دي فيني يرتاع منه ، ولم يخصص له الفريد دي موسيه الا فقرة واحدة فى شعره ، وبروسبير ميريمى لم يكن من المعجبين بأدبه وان كان صديقا وتلميذا له . وكان لستندال تأثير كبير عليه فقد علمه مذهبا جديدا فى الحياة يقوم على الشك والولع بالموسيقى والتمتع بالحياة واللذة فى ملاحظة الآخرين فى حياتهم ومحاولة تفسير أعمالهم وعواطفهم . أما سانت بيف فقد كتب عنه مقالين ، وكان بلزاك أول من درس دير بارم دراسة طويلة ووصفها بأن السمو يتجلى فى فصولها فصلا بعد فصل فتحمس لستندال ، ونادى به أستاذا من أساتذة

القصة عام ١٨٤٠ ، ولكن معاصريه كانوا مع ذلك لا يؤمنون بشيء من هذا كله . كان أكثر كتبه رواجا هو « نزهات في روما » وهو بمثابة دليل أدبي يكشف عن جمالها وتاريخها .

أما كتبه الأخرى فلم تكن خيرا من كتابه « من الحب » كانت مقدسة لا يمسها أحد !

تحمل ستندال هذا الظلم الشديد ، لأنه كان يعلم تماما أنه في مؤلفاته خارج على تقاليد عصره : فهو يحدثنا في « الأحمر والأسود » قائلا : « ... ومع ذلك فالقصة يا سيدي مرآة ينعكس فيها كل ما في الطريق العام ، فهي تارة تعكس زرقة السماء ، وتارة تعكس الوحل الذي يجلل الطريق . أما الرجل الذي يحمل المرآة فأنت لا تتردد في اتهامه بأنه لا يرعى الأخلاق لأن مرآته تريك الوحل ، وأنت تتهم المرآة ! أولى بك أن تتهم الطريق العام الذي جللته الأوحال ، بل أولى من ذلك وأصح أن تتهم مفتش الطريق الذي ترك الماء يأسن ، فتراكمت بسببه الأوحال » (٦) .

وبالرغم من هذا الظلم ، فقد أحيا « تين » في عهد الامبراطورية ذكراه ، ورأى أن أدبه يصطبغ بالصبغة العلمية ، واستعار كثيرا من آرائه في كتبه ، وخاصة في : « فلسفة الفن » و « رحلة في ايطاليا » و « أصول فرنسا المعاصرة »

---

(٦) الاحمر والاسود ج ٢ ص ٢٠٠ و ٢٠١ من الترجمة العربية .

و « الذكاء » . وحياة بول بورجيه حين ذكر أنه أب للتحليل النفسي في الأدب ، وخالق فكرة حب البلاد جميعا . وهذا هو رأي نيتشه وتولستوي أيضا . ويرى « موريس بارس » أن ستندال صادق في التعبير عن آرائه ومشاعره . وشارل موريس يضعه ضمن هذه الجماعة التي يراها مقدسة ، وهي جماعة الرمزيين . أما هنري ديرينه فقد قام برحلة في ايطاليا ، ولم يتردد في أن « يحيي ذكرى ستندالينا في حدائق فارنز ببارم ذات مساء من أمسيات الخريف ! » .

أتيحت لستندال بعد وفاته شهرة كبيرة أخذت تزداد على مر السنين ، ووقف القرن العشرون بجواره وقفة مجيدة فنشرت كتبه التي لم تطبع من قبل ، وكانت مخطوطاتها قد سلمها كولومب ، صديق ستندال ومنفذ وصيته ، الى مكتبة جرينوبل ، وعني بأدبه جماعة كبيرة من مؤرخي الأدب ونقاده . واهتمت السينما بمؤلفاته اهتماما شديدا ، فالممثل الفرنسي الكبير « جيرار فيليب » قام ببطولة فيلمين مأخوذين من أدب ستندال ، كما فرغ روسيليني حديثا من اعداد فيلم جديد تظهر فيه الأماكن الجميلة التي أحبها ستندال حبا جما وتلك المغاني الايطالية الفاتنة التي اختارها وطنا ثانيا له : بحيرة كوم وميلانو وبارم وروما وغيرها . كما أعد له التليفزيون الفرنسي ثلاثة برامج طويلة في العام الماضي ، تناولت حياته وأدبه وأبطال قصصه وغرامياته .

كل هذا مجد لم يكن هنرى بيل يتوقعه ! على أن جمهرة القراء من غير الفرنسيين تكتفى عادة بقراءة قصتين تعدان خير ما كتبه ستندال وهما : « الأحمر والأسود » و « دير بارم » (٧) . أما كتبه الأخرى فتلذ قراءتها لأنصار ستندال من الخاصة الذين يحبونه ويفضلونه على غيره من الكتـــاب .

الأحمر والأســـود

أهم شخصيات القصة :

جوليان سورل ـ دى رينال عمدة فريير ـ مدام دى رينال ـ المركيز دى لامول ـ ماتيلد دى لامـــول ابنة المركيز .

كتب ستندال هذه القصة عام ١٨٣١ ، والعنوان على غرابته يرمى الى الكشف عن ذلك الصراع الذى نشأ فى القرن الماضى بين النزعة الحربية (الأحمر) والنزعة الكنسية (الأسود) . بطل هذه القصة هو « جوليان سورل » ،

---

(٧) دير بارم : قمت بترجمتها بجزأيها الى اللغة العربية ، وطبعتها دار الكاتب المصرى فى ابريل ١٩٤٧ .
الأحمر والأسود : ترجمتها بجزأيها لمشروع الألف كتاب ونشرتها مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٦ .

نشأ في بيئة اجتماعية متواضعة فوالده نجار يقيم بمدينة فرنسية صغيرة أسماها ستندال « فريير » تقع في مقاطعة فرانش كونتيه على مقربة من مدينة بيزانسون .

تعلم جوليان تعليما دينيا ليصبح قسا ، ولكن سلطان الدين لم يكن متمكنا من قلبه . لقد كان طموحا ، يرمي الى أن يصل الى مكانة عسكرية كبرى عن طريق ثيابه الدينية السوداء . اختير أول أمره ، وكان لا يزال في التاسعة عشرة من عمره ، معلما خاصا لأولاد السيد دي رينال عمدة فريير ، فنجح في مهمته نجاحا كبيرا وذاع أمره في المقاطعة كلها ، وحاول بعض أثرياء فريير جاهدين أن ينتزعوه من بيت دي رينال ليعلم أولادهم . وأتاحت له شهرته واتقانه للغة اللاتينية أن يحصل على منحة دراسية بالمدرسة الأكليريكية ببيزانسون ، الا أنه لم يقم بها الا عاما وبعض عام لأن دسائس بعض رجال الدين كانت تطارده ، وأحقاد زملائه له دائما بالمرصاد في دراسته وغدوه ورواحه ، فغادر المدرسة ليعمل سكرتيرا للمركيز دي لامول بباريس . ثم خلع الثياب الدينية ليصبح ملازما بالخيالة ، وكان على وشك الزواج بماتيلد دي لامول ابنة المركيز ، على كره من أبيها . غير أنه علم أن مدام دي رينال — زوجة عمدة فريير وخليلة جوليان السابقة — أرادت الوقيعة به لدى المركيز ، فسافر الى فريير وأطلق عليها رصاصتين ، وهي تؤدي الصلاة في الكنيسة ، الا أنه لم يصب منها مقتلا . قبض عليه واقتيد

الى السجن وحوكم وحكم عليه بالاعدام ، بالرغم من عطف الجماهير عليه والمحاولات التى بذلتها مدام رينال والآنسة دى لامول فى سبيل الحصول على قرار بالعفو عنه .

يضع النقاد هذه القصة فى صف القصص العالمية الكبرى ، لأنها مليئة بالدراسات النفسية الدقيقة للعواطف العميقة وخلجات القلوب وهمسات النفوس ونظرات العيون ، واختلاف الطبائع والنزوات والغرائز والنزعات التى تسيطر على جميع أشخاص القصة . يتضح هذا فى جلاء وعمق لأن ستندال كان يعنى عناية كبيرة بالحياة الداخلية لأشخاص قصته ، ويهتم اهتماما شديدا بما يضطرب فى نفوسهم من صراع وسرور وخوف وألم وخديعة ، وفقا للمواقف المختلفة التى تفرضها حياتهم اليومية فى مجتمع مضطرب يموج بالانقلابات وحروب نابليون ومبادىء الثورة الفرنسية ، وتتغير فيه ألوان نظام الحكم وتتطاحن فيه الطبقات الاجتماعية : اضطراب صاخب للميول والأهواء والنزعات والأحقاد والمثل العليا والانتصارات الحربية ، والتضحية والحب وما اليها من تلك العوامل التى كان القرن التاسع عشر مسرحا لها !

يدفع الحب أبطال هذه القصة الى أن يقدموا على كل شىء فى جرأة شديدة ، ويأتوا من الأعمال ما ينطوى على التضحية الحقة والشجاعة الفائقة والتحمس الشديد ،

ولا يأبهون اطلاقا بما يجره عليهم من حزن وقلق وخوف ، لأن الحب عندهم جميعا سعادة وسرور وقوة ونشاط !

في مدرسة الحب ، وعلى يد مدام دى رينال تعلم جوليان سورل ، وكان سعيدا بما تعلم : لقد استطاع ان يتعرف على المجتمع الذى يعيش فيه تعرفا حقيقيا مباشرا ، ولم يعد الوصف الذى يقرؤه « يستدل ستاندال على نفسه حين يتناول كتبا تتحدث عن حالة المجتمع منذ ألفى عام أو منذ ستين عاما فحسب ، أيام فولتير ولويس الخامس عشر . أسقطت أحاديث الحب الحجاب عن عينيه ، فسر كثيرا حين استطاع أن يفهم ما يجرى فى فرنسا فهما صحيحا » : الا أنه كان حبا مدمرا عكر صفو أسرة كانت تنعم بالحياة وجر عليها العار ! ولكن لماذا أدخل العمدة قصره شابا عالى النفس وهو فى حاجة كبيرة الى وضعاء النفوس ؟ لماذا لا يعرف كيف يختار رجاله ؟ ان العرف المتبع فى القرن التاسع عشر هو أن الرجل القوى الذى ينتمى الى طبقة الأشراف ، لا يلبث اذا تقابل مع عظيم النفس أن يقتله أو ينفيه أو يلقى به فى غياهب السجون ، أو يزدريه ازدراء شديدا ، فلا يلبث الأحمق أن يحزن ويموت غيظا وكمدا . ولكن المصادفات أرادت أن يكون المعذب فى هذه المرة هو

القوى الشريف » (٨) . فهل كان جوليان سورل حقا صورة صادقة لنابليون أدخله دى رينال قصرة فأفسد عليه جميع أمره ، كما عاث فى قصر المركيز دى لامول فسادا وطعنه فى شرفه حين اتخذ ابنة المركيز خليلة له ؟ ولكن شتان ما بين القلبين ! كانت مدام دى رينال تجد من الأسباب ما يحملها على عمل ما يميله عليها قلبها . وكانت فى أسعد لحظات حياتها تخاف أن يكون حب جوليان لها معادلا حبها له . أما ماتيلد دى لامول هذه الفتاة الأرستقراطية الرائعة الجمال المتدة بشخصيتها وحسبها ، فلا تترك قلبها ينبض بالحب الا اذا اقتنعت هى بأن هناك أسباب وجيهة تحمله على ذلك .

يصفها جوليان بأنها شيطان وعليه أن يخضعها ويذلها ! وقد استطاع اخضاعها واذلالها ، لأن الأحقاد الناشئة عن فروق الطبقات كانت تسيطر على جوليان سيطرة تامة ، وتتسلط على عقله وعواطفه فيعد كل نجاح يحرزه فى حياته انتصارا على السادة الأشراف المفاخرين بحسبهم ومالهم وسيادتهم والمسيطرين على مجتمع عصرهم !

وهنا نرى ستندال يزج بجوليان سورل فى ميدان السياسة ومؤامرات الطبقة الأرستقراطية ، فيجعله يشهد مناقشات سياسية عنيفة تدور بين جماعة كبيرة من أشهر

---

(٨) الأحمر والأسود : الفصل الثالث والعشرون « أحزان موظف » ج ١ ص ٢٢٠ من الترجمة العربية .

زجال عصره في السياسة والصحافة والأعمال والدين . ويكلف بمهمة سرية في انجلترا من قبل هؤلاء السادة الأشراف الذين تدفعهم أطماعهم الى أن يستعينوا بانجلترا ليستقر لهم الأمر ، فلا تقوم في فرنسا ثورات جديدة تحطم آمالهم وتقضي على أطماعهم . فليس صحيحا اذن ما زعمه ستندال من أنه أراد أن يضع نقطا على صفحة كاملة ، وهو يتحدث عن السياسة ، فقال له الناشر : « ان هذا ليس محمودا ، لا سيما وأن ما تكتبه ضرب من اللغو ، فاذا لم يتوافر الظرف فيما تكتب حكمت عليه بالموت » . فأجابه ستندال قائلا :

« ان السياسة كحجر يشد الى عنق الأدب ، فلا يلبث أن يغرقه في زمن لا يزيد على ستة شهور . السياسة بين الانتاج العقلي كطلقة نارية وسط حفل موسيقي . هي ضجة مفزعة ، لكنها ليست قاضية ، فهي لا تلائم أي صوت من أصوات آلات الموسيقا . وهذه السياسة ستضايق القراء ضيقا شديدا ، وتوقعهم في الحرج ثم تجلب السأم الى نفوس النصف الآخر حين يقرؤنها في صحيفة الصباح بصورة أخرى » .

فأجابه الناشر قائلا : « اذا لم ترد السياسة على السنة أشخاص قصتك ، فهم ليسوا اذن فرنسيين يعيشون في سنة ١٨٣٠ ، ولن يكون كتابك مرآة للحوادث كما تزعم ! » .

هذه القصة ليست قصة حب فحسب وانما يتجلى فيها الصراع السياسى العنيف بين أنصار نابليون وأعدائه بين الملكيين والجمهوريين ، بين الأشراف والطبقة الوسطى والعامة . يتضح فيها هذا الخوف الشديد الذى يبديه أشراف باريس ونبلاء الريف من أن تقوم ثورة أخرى تعصف بهم كما نكلت الثورة الفرنسية بهم من قبل وقضت على الكثير من امتيازاتهم . ثم فيها محاولات كبيرة لاذابة الفروق بين الطبقات الاجتماعية ، ليتولى مقاليد الأمور فى فرنسا شبان متعلمون أذكياء أمثال جوليان سورل ، وكثير ما هم ، وان انتموا الى طبقة العامة الا أنهم ينتمون جميعا الى مدرسة نابليون بونابرت فى العمل والحزم والشـــجاعة والجرأة والاقدام .

مشهد من القصـــة

الســـأم

(لم أعد أعرف من أكون ولا ماذا أفعل)
موزار (فيجارو)

كانت مدام دى رينال خارجة من باب صالونها المطل على الحديقة بما فطرت عليه من نشاط وظرف ، حين تكون بعيدة عن أعين الرجال ، فوقع بصرها على شاب ريفى شديد

المسحوب ، واقف بجوار الباب وهو يبكى ، عليه قميص ناصع البياض ، وتحت ابطه حلة من الجوخ بنفسجية نظيفة، أبيض الوجه ، جميل العينين ، فظنته مدام دى رينال بما فطرت عليه من خيال قصصى ـ فتاة تنكرت فى ثياب رجل ، جاءت تطلب عونا من العمدة ، وأشفقت على هذا المخلوق البائس الذى ظل واقفا بجوار الباب ، لا يجرؤ على رفع يده ليدق الجرس . فاقتربت منه ، وكان جوليان ينظر الى الباب فلم يرها وهى مقبلة ، فاضطرب حين سمع صوتا رقيقا قريبا من أذنه يقول :

ـ ماذا تريد منا يا بنى ؟ ووقع بصره على نظراتها الرقيقة حين التفت اليها فى اندفاع ، فزايله بعض حيائه ، ثم رأى جمالها ، فنسى كل شىء ، حتى المهمة التى أتى من أجلها : وعادت مدام دى رينال تسأله فأجابها ، وقد خجل من دموعه التى أخذ يجففها .

ـ أتيت يا سيدتى لأعلم الأطفال ، فبهتت ، وظلت واقفة بالقرب منه لا تبدى حراكا ، ونظر كل منهما الى الآخر . لم ير جوليان من قبل سيدة متأنقة فى ملبسها كمدام دى رينال ، ولا وجها كوجهها فى الجمال . ولم يسعد فى حياته بحديث عطوف رقيق كحديثها . وكانت مشغولة بالنظر الى الدموع التى سالت على خدى هذا الفتى الشاب فضرجتهما بالحمرة بعد الصفرة الشديدة . ثم طفقت تضحك

ضحكا جنونيا شديدا ، لا تستطيعه الا فتاة صغيرة ، وسخرت من نفسها لانها كانت سعيدة الى أبعد حد : أهذا هو المعلم الذى صورته لنفسها من قبل فى صورة قسيس قذر ، رث الثياب ، يأتى اليهم ليؤنب أطفالها ويضربهم ؟ ثم قالت له :

ـ أحقا يا سيدى أنك تعرف اللاتينية ؟

فذهل جوليان حين سمع كلمة سيدى وأطرق برأسه لحظة ثم أجابها فى حياء :

ـ نعم يا سيدتى .

وكانت مدام دى رينال فى هذه اللحظة سعيدة الى أبعد حد ، فسمحت لنفسها بأن تقول له :

ـ لن تؤنب أولادى كثيرا ، أليس كذلك ؟ فاجابها فى دهشة وحيرة :

ـ أنا أؤنبهم ، ولماذا ؟ فقالت بعد صمت قصير ، فى نبرات يظهر فيها التأثر لحظة بعد أخرى :

ـ نعم يا سيدى ! أتعدنى بأن تكون معهم طيبا رقيق القلب ؟

ولم يكد جوليان يسمع تلك السيدة الأنيقة تناديه بقولها سيدى ، فى لهجة تنطوى على الجد ، حتى طار عقله

فرحا . لم يكن يتصور اطلاقا ، حتى فى أحلامه التى يضطرب بها شبابه ، أن سيدة جميلة أنيقة تتحدث اليه هذا الحديث الرقيق دون أن يكون لابسا حلة جميلة . وعجبت مدام دى رينال بدورها من جمال وجهه وعينيه الكبيرتين السوداويين وشعره الجميل المجعد ، الذى كان فى تلك الساعة أكثر تجعدا منه فى أى وقت آخر ، لأنه أراد أن يستعيد بعض نشاطه فغمس رأسه فى حوض النافورة العامة .

وسرت مدام رينال حين رأت على المعلم حياء العذارى ! لأنها كانت تخشى على أبنائها من رجل قاس عبوس الوجه . انها لمباغتة سارة لنفسها الهادئة التى تولع دائما بالوئام وتحب السلام ثم زالت دهشتها بعد قليل ، ونظرت فاذا هى تكاد تكون ملتصقة بشاب جميل لا تعرفه من قبل ، لا يكاد يستره الا قميص . وكانا واقفين معا بجوار الباب . فقالت له فى نبرات مضطربة :

ـ فلتدخل المنزل يا سيدى .

وكانت بادية التأثر ، شديدة الفرح ، سعيدة بزوال مخاوفها من أن يقع أطفالها بين يدى قس قذر فظ القلب ، خشن الطباع ، لأنها شديدة العناية بهم .

ولم تكد تدخل الردهة حتى التفتت اليه ، وهو يتبعها فى حياء شديد : وبهره جمال المنزل وفخامة الأثاث ، فازداد

وجهه فى نظرها جمالا على جمال ، حتى كادت لا تصدق عينيها . وخيل اليها أن المعلم يجب أن يلبس السـواد ، فوقفت سائلة :

ـ أحقيقة يا سيدى أنك تعرف اللاتينية ؟

ألقت عليه هذا السؤال لأنها كانت تخاف ألا يكون هو معلم أولادها . لكن جوليان أحس فى سؤالها جرحا لكبريائه ، بدد الحلم الجميل الذى كان ينعم به منذ ربع ساعة ، فأجابها فى هدوء بارد :

ـ نعم يا سيدتى ، أعرفها كما يعرفها كاهن المدينة . وكثيرا ما كان يتفضل على فيقول انى أعرفها خيرا منه .

ورأت السيدة على وجهه دلائل الشر وهو واقف على بعد خطوتين منها فدنت منه وقالت له بصوت خفيض :

ـ أتعدنى بأنك لا تضرب أبنائى فى الأيام الأولى ولو لم يحفظوا دروسهم ؟

نغمات عذبة حلوة نطقت بها غادة حسناء فنسى جوليان دفاعه عن نفسه ، لأنها نغمات يشوبها التضرع .

وكان وجهها قريبا جدا من وجهه ، حتى أنه شم عطر ملابسها الضيقية ، وهو شىء لم يعتده فلاح مثله ، فاحمر وجهه ، وقال لها فى صوت خافت مضطرب :

– لا تخشى شيئا يا سيدتى فسأطيعك فى كل ما تأمرين .

وتبددت مخاوف الأم على أطفالها ، فآن لها أن ترى وجه جوليان على حقيقته ، وعندئذ أذهلها جماله . انه كوجوه العذارى ! ولم تعد تعجب باضطرابه وخجله ، لأنها كانت بطبعها كثيرة الخجل شديدة الحياء . وكان مظهر الرجولة الذى يحبه غيرها من النساء يخيفها ويزعجها . ودار بينها وبين الشاب الحديث التالى ، فقالت له :

– كم عمرك يا سيدى ؟

– سأكون عما قريب فى التاسعة عشرة من عمرى .

– ان ابنى الأكبر فى الحادية عشرة . ومن الممكن اذا أن يكون لك صديقا ، فتحدث اليه حديثا يلائم سنه . لقد أراد أبوه مرة أن يضربه فصفعه صفعة خفيفة ، فمرض أسبوعا ولزم الفراش .

ولم يكد جوليان يسمع كلامها حتى أخذ يقول فى نفسه : ما أعظم الفرق بينى وبين ابنها !

لقد ضربنى أبى بالأمس ، حقا ، أن هؤلاء الأغنياء لسعداء ! وكانت السيدة شديدة الانتباه الى كل ما يدور فى نفسه ، فأبصرت وجهه وقد غطته سحابة خفيفة من الحزن ظنتها لفرط حياء منه ، فشجعته بمسألة اياه عن اسمه فى

لهجة جذابة ، أحس جوليان كل ما فيها من جمال دون أن يدرك مرماها ثم أجاب :

ـ أدعى جوليان سوريل يا سيدتى ، وانى لشديد الاضطراب ، فهذه أول مرة فى حياتى أعيش فيها فى منزل لا أعرفه .

أنا فى حاجة الى حمايتك يا سيدتى ، وأرجو أن تصفحى عن الهفوات التى أقترفها فى الأيام الأولى من حياتى معكم ، فانى لم أذهب مطلقا الى مدرسة لأننى كنت فقيرا ، ولم أتحدث مع رجل ، غير أبى وابن عمى الجراح العجوز الذى يحمل وسام الشرف والقسيس السيد شيلان الذى سيشهد لى شهادة طيبة . كان اخوتى يضربوننى دائما ، فلا تصدقيهم اذا قالوا عنى قولا سيئا ، اغتفرى لى أخطائى واعتقدى دائما أننى لا أرتكبها عمدا .

وعاد الهدوء الى نفسه بعد هذه الخطبة الطويلة ، فتأمل السيدة التى كانت تبدو جميلة ، ظريفة اذا كانت على سجيتها وكان من تتحدث اليه لا يتكلف الظرف معها . ولو أن جوليان سئل عنها فى هذه اللحظة لقال صادقا : أراها لم تتجاوز العشرين من عمرها بعد ، وهو خبير بجمال النساء .

وبدا له أن يقبل يدها ، لكنه سرعان ما ندم على

فكرته وخشى مغبة عمله . على أنه قال فى نفسه : لو أننى أحجمت عن هذا العمل لعدته جبنا ، ومن يدرينى لعل فيه خيرا لى ، وربما أكسبنى احتراما فى نظر هذه السيدة التى تراني عاملا بائسا خرج من المصنع منذ قليل .

وتردد ، ثم شجعه ما ذكره من أن بعض الفتيات كن يصفنه بالجمال ، حين كان يلتقى بهن أيام الآحاد ، وكان ذلك منذ ستة شهور . وتكلمت مدام دى رينال ، وهو فى صراعه النفسى ، ترشده الى الطريقة التى يعلم بها أولادها أول الأمر . وكان هذا الصراع قد أعاد الشحوب الى وجهه الجميل ، فقال لها وهو يحاول التغلب على ما فى نفسه :

— لا يا سيدتى ، لن أضربهم أبدا : وأقسم لك على ذلك أمام الله ، ثم اندفع وتناول يدها وقبلها . وأذهلتها هذه الحركة فكادت تغضب . كان الجو شديد الحرارة ، وذراعها عارية لا يسترها الا لفاع ، فانكشفت حين رفع جوليان يدها الى شفتيه . ومرت لحظات ندمت بعدها السيدة على أنها لم تؤنبه على ما فعل .

كان السيد دى رينال فى غرفة عمله ، فسمع كلاما فى الردهة ، خرج بعده ، وسار نحوهما فى هيئة تدل على حنو وعظمة . سار فى تلك الهيئة التى يصطنعها فى حفلات الزواج فى دار العمدية ، ثم قال لجوليان :

ـ يجب أن أتحدث اليك قبل أن يراك الأطفال ·

ولما دخلا الغرفة معا وأغلق الباب ، احتجز زوجه التى كانت تريد أن تتركهما معا ، ثم جلس دى رينال فى وقار وقال :

ـ أخبرنى السيد القس أنك من الرعايا المخلصين ، وسيعاملك جميع من هنا معاملة كلها احترام · واذا سرنى عملك ، ساعدتك فيما بعد فى الحصول على منصب · أما الذى أطلبه منك ، فهو ألا ترى بعد الآن أحدا من أقاربك أو أصدقائك ، لأن لغتهم لا تتفق مع ما أبتغيه لأبنائى من تربية سليمة · هاك ستة وثلاثين فرنكا ، أجرك عن الشهر الأول ، وعدنى بشرفك ألا تعطى منها شيئا لأبيك ·

كان العمدة مغيظا من الشيخ سورل لأنه كان أكثر منه ذكاء ودهاء فى اتمام هذه الصفقة · ثم استطرد يقول :

ـ والآن أيها السيد لا يحسن أن يراك الأطفال فى هذه الملابس · وقد أصدرت أمرا بأن يدعوك كل من فى المنزل بالسيد ، وستشعر بعد قليل بالنفع الذى يعود عليك حين تعمل فى منزل قوم محترمين ·

ثم سأل زوجه :

ـ هل رآه الخدم فى هذه الثياب ؟ فأجابت وعليها دلائل تفكير شديد ·

ـ كلا يا صديقي !

فتناول العمدة ردنجوتا من ملابسه الخاصة وهو يقول :

ـ حسنا ، البس هذا ، وسنذهب معا الى مسيو دوران تاجر الاصواف . وانصرفا ، ثم عادا بعد ساعة ، والمعلم الجديد في حلة سوداء . ولما دخل دي رينال الفي زوجته في مكانها لم تبرحه . ولشد ما اطمأنت ، حين وقع بصرها على جوليان حتى نسيت وهي تنظر اليه أنها كانت من قبل منزعجة منه .

كان جوليان لا يفكر فيها الآن ، وعلى الرغم من أنه يحذر الأقدار والرجال فان روحه في تلك اللحظة كانت روح طفل عابث . وخيل اليه أنه عاش سنوات طويلة منذ وقف مضطربا في الكنيسة قبل ذلك بثلاث ساعات . وألقى نظرة على مدام دي رينال فألفاها ضجرة فأدرك أنها لاتزال غضبى منذ قبل بدها ، غير أن ثيابه الجديدة بعثت في نفسه زهوا شديدا ، لأنها تغاير ما اعتاد أن يلبسه من قبل ، فكانت حركاته صاخبة جنونية ، وحاول عبثا أن يخفي فرحه ، فأخذت السيدة تنظر اليه في دهشة وحتى قال له زوجها :

ـ عليك بالرزانة يا سيدى اذا أردت أن يحترمك الأطفال والخدم ».

فقال له جوليان :

ـ معذرة يا سيدى ، فان الحلة الجديدة تضايقنى فما كنت ألبس من قبل الا ملابس الفلاحين الفقراء . أتسمح لى بالذهاب الى غرفتى لأغلق على الباب ؟

وانصرف فسأل العمدة زوجه :

ـ ماذا ترين فى هذا الكسب الجديد ؟ فأشارت اليه اشارة أملتها عليها الغريزة ، دون أن تفطن ، ثم أخفت الحقيقة عن زوجها حين قالت :

ـ لست متحمسة مثلك لهذا الشاب الريفى ، وأن مبادأتك اياه بالبشاشة والكرم ستخلق منه شخصا سيىء الخلق تضطر الى طرده قبل أن يمضى على اقامته معنا شهر واحـــد .

ـ حسنا ! سنرى ما تقولين ، واذا تحقق ظنك فلن أخسر فى هذه التجربة الا مائة فرنك فقط ، على أن فريير ستعتاد أن ترى أطفال السيد دى رينال مع معلم خاص بهم . وهذا الغرض الذى أرمى اليه لا يتحقق ان تركت

جوليان فى ملابس العمال ، واذا طردته ، فسآخذ ، ولاشك ، الحلة السوداء الجديدة التى اشتريتها له من تاجر الصوف ، ولن أترك له الا ما وجدته عند الحائك وهو ما يلبسه الآن .

خيل الى مدام دى رينال أن الساعة التى قضاها جوليان فى غرفته دهر طويل ، لأن أطفالها الذين علموا بقدوم معلمهم الجديد أرهقوها بوابل من الأسئلة ، وأخيرا ظهر جوليان ، فكان رجلا آخر لم يكن رزينا فحسب وانما كان الرزانة بعينها . وقدم الى الأطفال فتحدث اليهم حديثا أذهل السيد دى رينال نفسه . وقبل أن يفرغ من حديثه قال لهم :

ـ لقد جئت اليكم لأعلمكم اللغة اللاتينية . وأنتم تعلمون ، ولا شك ، كيف يلقى الانسان درسا حفظه سأستمع غالبا الى دروسكم فاستمعوا الآن الى درسى . هذا الكتاب الصغير الأسود هو الكتاب المقدس الذى يتحدث عن حياة سيدنا عيسى . انه الجزء من الانجيل الذى يسمى العهد الجديد .

ثم أعطى الكتاب أدولف أكبر الأولاد سنا وقال له :

ـ افتح الكتاب فى أى مكان ، وقل لى الكلمة الأولى فى أى جزء من الأجزاء ، وسأتلو عليك ما تشاء مما حفظت

من هذا الكتاب المقدس الذى يعد مثلنا الأعلى فى الحياة ، وسأقرأ حتى تكتفى أنت بما أقرأ ·

ففتح أدولف صفحة ثم قرأ كلمة ، وأخذ جوليان يتلو حتى انتهى من الصفحة كلها فى يسر كبير ، كما لو كان يتحدث بالفرنسية · عندئذ ألقى دى رينال على زوجه نظرة اغتباط وفخر ، ورأى الأطفال حيرة أبويهم فذهلوا كذلك · ووقف خادم بباب الصالون ، فسمع جوليان يتحدث باللاتينية ، فأنصت لا يبدى حراكا ، ثم غاب عن الأبصار ، ثم جاء بعد قليل وصيفة مدام دى رينال والطاهية ، ووقفتا بالباب · وكان أدولف حينذاك قد فتح الكتاب فى ثمانية مواضع مختلفة ، وجوليان يتلو كما بدأ فى سهولة ويسر ، عندئذ صاحت الطاهية فى صوت مسموع :

ـ آه ! يا الهى ! يا له من قس ورع جميل !

سر السيد دى رينال ، الا أن كرامته قد جرحت ، فأخذ يبحث فى ذاكرته عن بضع كلمات لاتينية ، غير مبتغ أن يمتحن معلم أولاده ، وأخيرا استطاع أن يتذكر بيتا من شعر هوراس فأنشده · وعندئذ قطب جوليان حاجبيه ، لأنه كان لا يعرف الا لاتينية انجيله ثم قال :

ـ لقد حرم على الكهنوت أن أقرأ شعر هذا الشاعر الدنيوى الدنس ·

وأنشد السيد دى رينال مرة أخرى لهوراس ، ثم تحدث عنه لأطفاله ، لكن اعجابهم بجوليان كان بالغا فلم يلتفتوا الى ما يقوله أبوهم ، ولم يحولوا نظراتهم عن معلمهم الجديد .

كان الخدم لا يزالون واقفين بالباب ، فأراد جوليان أن يؤثر فى نفوسهم تأثيرا عميقا لينال اعجابهم . أكثر مما فعل ، فقال لأصغر الأطفال :

— يجب أن تقرأ كلمة من هذا الكتاب لأتلو عليك بعض الفقرات .

فأخذ زهو سنتانيسلاس كزافييه ، وعالج قراءة كلمة حتى أفلح بقدر ما استطاع ، فتلا جوليان صفحة كاملة . وكان انتصار السيد دى رينال كبيرا حين دخل عليه فى تلك اللحظة السيد فانو صاحب الجياد النورماندية ، والسيد شاز كودى موجيرون وكيل حاكم المقاطعة ، فسمعا جوليان وهو يتلو الانجيل عن ظهر قلب ، فاستحق المعلم عن جدارة لقب سيد ، ولم يجرؤ الخدم أن يضحكوا عليه به .

وفى المساء أقبل كثير من أهل فيريير الى منزل السيد دى رينال ليروا بأنفسهم هذه المعجزة الخارقة ، فكان جوليان يجيب عن أسئلتهم فى ايجاز واعتزاز كبيرين ، وسرعان ما أخذ الناس يتحدثون عنه فى المدينة كلها حتى

ذاع صيته ، وحتى خشى السيد دى رينال أن يختطفه أحد الأغنياء ، فاقترح عليه أن يوقع عقدا بعامين ، الا أن جوليان قال فى فتور :

ـ لا يا سيدى ، لو أحببت أن تطردنى لخرجت على الرغم منى ، فالعقد الذى يقيدنى دون أن يقيدك بشىء عقد جائر لا أوافق عليه .

ولم يكد يمضى شهر على اقامة جوليان عند العمدة ، حتى أصبح يتمتع منه باحترام كبير ، لأنه كان يؤدى واجبه على أكمل وجه . وفسد الأمر بين القسيس الشيخ وبين د ى رينال وفالنو ، فلم يعد جوليان يخشى من افتضاح سره القديم ، وهو تجسسه لنابليون ، الذى أصبح يتحدث عنه الآن فى كثير من الكراهية والازدراء !